

الأدب الأنـدلسي

بعد سقوط غرناطة

و دوره في المحافظة على هوية الموريسكيين

الدكتور الربيعي بن سلامة
جامعة قسنطينة-الجزائر-

تمهيد تاريخي :

إذا كانت دولة العروبة والإسلام في الأندلس قد انتهت - كما هو معلوم - رسميا و فعليا بتسليم مفاتيح غرناطة سنة 897هـ / 1492م، فإن الوجود العربي الإسلامي في الأندلس لم ينته مع نهاية هذه الدولة، ولم تزل الثقافة العربية الإسلامية بزوالها ، وإنما حاول الأندلسيون - على الرغم من قساوة الظروف - أن يحافظوا على كياناتهم العربي الإسلامي المتميز طيلة وجودهم في الأندلس. وقد كان الأدب من أهم العوامل التي حافظ من خلالها الأندلسيون على ثقافتهم، حيث استمر في أداء رسالته خلال الفترة الممتدة بين سنتي : 1492- سنة سقوط غرناطة- و 1609 و هي السنة التي صدر فيها قرار الملك فيليب الثالث بطرد الأندلسيين بعد أن فشلت كل المحاولات في تحويلهم عن دينهم إلى المسيحية.

حاولت السلطات الإسبانية ، بعد قضائها على مملكة غرناطة ، أن تقضي على الوجود العربي الإسلامي و تمحو آثاره من الأندلس بمختلف الوسائل، فعمدت إلى إحراق وإتلاف معظم ما استطاعت جمعه من ذخائر المكتبات الأندلسية ، لتحول بين الأندلسيين وبين ما يذكروهم بماضيهم الثقافي و الحضاري المجيد. و قد اختلف المؤرخون في تحديد كمية الكتب التي أحرقت، فقدرها بعضهم بمئات الآلاف (1) وقدرها بعضهم بمليون كتاب أو يزيد (2) ولم تكتف السلطات الكنسية بهذا وإنما عمدت إلى إكراه من بقي من المسلمين في الأندلس على التنصر ، ابتداء من سنة 905 هـ / 1499م (3) ومع مرور الزمن تغير اسم الأندلسيين و أصبحوا يعرفون بالموريسكيين وهو تصغير لكلمة عربي أو مسلم، و هذا بعد سنة 1522م، حيث كانوا يعرفون قبل ذلك « بالعرب الذين اعتنقوا حديثا الدين المسيحي » (4).

(1) عنان، محمد عبد الله. نهاية الأندلس، ط4. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1987، ص315

(2) CIRCOURT ALBERT (DE) HISTOIRE DES MORES AU DEJARES ET DES MORISQUES, PARIS, 1846, T2, P 43

(3) عنان، نهاية الأندلس، ص 315

(4) كاردياك، لويس، الموريسكيون الأندلسيون و المسيحيون. ترجمة عبد الجليل التميمي، ط1.

تونس- الجزائر : 1983، صص 147، 148.

وقد ألحّت السياسة الإسبانية في ملاحقة هؤلاء الموريسكيين و التضييق عليهم ، بما أصدرته من قوانين ، لتحريم ممارسة الشعائر الإسلامية، حيث تلاحقت هذه القوانين، كما أوردت الأستاذة لوس لوباث بارالت(5)، على امتداد القرن السادس عشر ، فصدر أولها سنة 1501م ثم تتالت عبر سنوات 1502، 1524، 1526، 1527، و كان آخرها قانون سنة 1566م الذي أعلن في أول جانفي 1567 والذي طبق بشدة صارمة (6).

وقد تأخر تحريم استخدام اللغة العربية قليلا عن تحريم ممارسة الشعائر الإسلامية ، حيث صدر أول قانون بتحريمها سنة 1526 أو 1527(7) ومما لا شك فيه أن تأخر تحريم استخدام اللغة العربية قد ساعد الأدب على الاستمرار في أداء رسالته بلغته الأصلية إلى وقت متأخر، يحتمل أن يكون قد امتد إلى سنة 1567م، حيث أورد الكونت دي سيركور ترجمة فرنسية لقصيدة يمكن أن تكون قد صدرت في أوائل سنة 1567م(8) إثر صدور القانون الذي تشدد في تحريم استعمال اللغة العربية و ممارسة الشعائر الإسلامية، قد كانت هذه القصيدة التي أنشدها الشاعر الموريسكي محمد بن داود موجهة إلى مسلمي شمال إفريقيا ، مما يوحي باحتمال كتابتها بالعربية لأن المسلمين في شمال إفريقيا لا يقرؤون غيرها- عادة.

ولم يستسلم الأندلسيون أمام هذه القوانين الجائرة المتتالية، التي كانت تريد أن تقطع كل صلاتهم بماضيهم الحضاري، و إنما اخترعوا لأنفسهم لغة سرية جديدة- لتحمل ما بقي من قبس الإسلام ، و لتؤكد تعلقهم بلغة أجدادهم - وهي لغة «الألمبادو» التي كانت تكتب القشتالية و غيرها من اللهجات المحلية بحروف عربية(9) وقد استمر الموريسكيون «يكتبون بها ما لديهم من المعارف

(5) Lopez-Baralt, Luce -Chronique de la destruction d'un monde la littérature Aljamiado morisque. Revue d'histoire Maghrébine. Tunis. N17.18. 1980. pp44-46

(6) عنان. نهاية الأندلس. ص 494

(7) أورد عنان في نهاية الأندلس. ص 494 أنه صدر سنة 1526. بينما أوردت لوباث في بحثها

السابق ص 46 أنه صدر سنة 1527م.

(8) Circourt. Albert (de) Ibid. t2, pp 481-484

(9) عنان. نهاية الأندلس. ص 493-500

للحفاظ على عقيدتهم من ناحية، ولتعمية متعقبيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى. ومن الطبيعي أن نجد موضوعات هذه الكتابات المستعجمية وروحها إسلامية خالصة. ولم نتوصل إلى الكشف عن سرها و حل رموزها إلا في القرن التاسع عشر» (10)

وعلى الرغم من قلة ما لدينا من معلومات عن هذا الأدب الألفمياي، فإن ما وصلنا منه مترجما - على قلته - يكفي لتكوين فكرة طيبة عن الدور الذي قام به في التصدي للاندثار ، بعد أن وقع الانهيار بسقوط غرناطة، و سيتضح هذا الدور بعد أن نستعرض بعض النماذج من الشعر و النثر.

أولا الشعر :

مر الشعر الأندلسي- بعد سقوط غرناطة - بمرحلتين، أما أولاهما فيمكن اعتباره فيها استمرارا للشعر العربي في الأندلس ولأنه ظل يصدر بالعربية، كما كان قبل سقوط غرناطة ، ومن نماذج هذه المرحلة تلك القصيدة التي كتبها أهل الجزيرة للاستنجا بالسلطان بايزيد العثماني الذي توفي سنة 918هـ/ 1512م، و التي استهلها شاعرهم بقوله(11)

سلام كريم دائم متجدد ❁ أخص به مولاي خير خليفة

سلام على مولاي ذي الجدوالعلا ❁ ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه ❁ وأيده بالنصر في كل وجهة

ولا يخفي ما تنطوي عليه هذه المقدمة من آمال الأندلسيين في الخلاص على أيدي العثمانيين. وقد رجح الدكتور عبد الله عنان أن تكون هذه القصيدة قد أرسلت إلى بايزيد خان الثاني عقب ثورة البشرا و ما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المتنصرين، و ذلك حوالي سنة 1505م.(12)

(10) بالنشيا، أنخل جنثالث. تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس. ط1. القاهرة:مكتبة

النهضة المصرية، 1955. ص 507.

(11) المقرئ. أزهار الرياض في أخبار عياض. تحقيق مصطفى السقا و آخرين . المحمدية (المغرب):

1978 ج1. ص 109.

(12) عنان. نهاية الأندلس. ص 347

ومن نماذج تلك الفترة أيضا ما أضافه أحد الأندلسيين إلى نونية أبي البقاء الرندي المشهورة بمطلعها :

لكل شئ إذا ما تم نقصان ❁ فلا يغربطيب العيش إنسان

حيث اعتمد هذا الشاعر ما جاء في قصيدة الرندي و أضاف إليها عشرين بيتا تخللت أبيات القصيدة الأصلية و تضمنت ذكر مدن أندلسية لم تكن قد سقطت في عصر الرندي، مثل بسطة و غرناطة و غيرها...وقد أشار المقرئ إلى أن تلك الإضافة جاءت متأخرة، كما أشار إلى أنها دون مستوى قصيدة الرندي من حيث قيمتها البلاغية. (13)

أما شهاب الذين الخفاجي فقد نسب القصيدة الأصلية مع ما ألحق بها من إضافات إلى السيد يحيى القرطبي، وقال بأنها أرسلت إلى السلطان سليمان العثماني، الذي حكم بين سنتي 926هـ/1520م و 974هـ/1566م (14) و هذا يعني-إن صح- أن هذه الإضافات قد جاءت متأخرة عن سقوط غرناطة بما لا يقل عن ثمان و عشرين سنة ، و يمكن أن تتأخر إلى أبعد من ذلك بكثير ، كما نرى في التاريخ الأخير. و شعر هذه المرحلة، و إن كان جديرا بدراسه خاصة، فإننا لن نتناوله في هذه المناسبة.

و أما المرحلة الثانية- وهي التي يعيننا أدبها- فهي تلك التي جاءت بعد صدور القوانين التي حرمت على الأندلسيين استعمال اللغة العربية، والتي بدأت رسميا سنة 1526م بصدور أول قانون لتحريم استعمال اللغة العربية، كما رأينا.

وتمتد بعد ذلك لتشمل الفترة الواقعة بين سنة 1526 و سنة 1609م، وهي السنة التي صدر فيها قانون طرد المورييسكيين من ديارهم.

وقد تميزت هذه المرحلة التي اشتد فيها الاضطهاد و القهر بالتجاء المورييسكيين إلى استخدام لغة الألكميايدو في أشعارهم ، بهدف التخفي من ملاحقات الكنيسة ، ولكن يبدو أن فكرة اضطهاد الأقلية المسلمة لم تبدأ في عهد

(13) المقرئ. نفع الطيب.4:488, 489.

(14) الخفاجي، شهاب الدين . ريحانة الألباب . تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. ط 1 مصر : الباب الطبلي

و شركاه، 1967. ج1 : 370-374.

الموريسكيين، و إنما بدأت قبل ذلك في عهد المدجنين(15)، الذين اضطروا، قبل الموريسكيين، إلى التخفي وراء ستار اللغة الأعجمية ، فقد أورد «بالنثيا» في حديثه عن الشعر الموريسكي نصوصا تعود إلى القرن الرابع عشر، حيث قال، بعد أن فرغ من الحديث عن قصة يوسف مع زليخة:

« و الغالب كذلك أن رباعيات المدحة النبوية المسماة: «المدحة ألبنثه أل النبي محمد...= مدحة مديح النبي محمد» ترجع إلى القرن الرابع عشر...وهي مصوغة في قالب الزجل...و إليك غصنين منها»(16)

وبعد أن أثبت الغصنين بلغتهما الأصلية قام بترجمتها ، و هما :

يا ربنا صل عليه

واشملنا بحبك معه

واخرجنا في جماعته

في رحاب محمد

ياحبيبي يا محمد و الصلاة على محمد

ومن يرد حسن المال

و بلوغ المقام العالي

فليكثر في ظلام الليالي

من الصلاة على محمد

ياحبيبي يامحمد و الصلاة على محمد.(17)

« و إلى ذلك العصر أيضا ترجع قصيدة مديح محمد » التي اكتفى بالنثيا

بإيراد مطلعها ، و هو :

الحمد لله المستعال الحق

ذي الجلال و الكمال وهو رب عادل

رب كل شيء، واحد أحد و ذو سيادة

صريح قوي، صاحب الأمر لا شك فيه.»(18)

(15) المدجنون هم المسلمون الذين رضوا بالإقامة تحت حكم الإسبان، وهم سكان المدن التي سقطت

قبل سقوط غرناطة ، مثل قرطبة و بلنسية...و

(16) بالنثيا، أنخل. تاريخ الفكر الأندلسي. ص 516

(17) بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي. 517

(18) م ن . ص ن .

و هكذا يكون المدجنون قد فتحوا بابا من المناورة و التخفي، سيعمل المورييسكيون بعدهم على توسيعه، ليصبح منفذا و متنفسا لأدبهم و ثقافتهم المحتضرة.

ويمكن أن تكون قصيدة محمد بن داود - التي سبقت الإشارة إليها- آخر نص عربي، و لكننا لا نستطيع أن نرجح ذلك ، بسبب ضياع نصها الأصلي، الذي يحتمل أن يكون عربيا، كما يحتمل أن يكون أَلخمياديا .و إذا كان توجيه القصيدة إلى شمال إفريقيا يرجح احتمال كتابتها بالعربية- كما أسلفنا - فإن صدورها المتأخر يرجح احتمال كتابتها بالألخميادية.

وقد نقل الدكتور عبد الله عنان مقتطفات من هذه القصيدة عن الترجمة القشتالية ، و أشار إلى أن صاحبها محمد بن داود كان واحدا من زعماء الثورة التي فجرها المورييسكيون على إثر صدور ذلك القانون المشؤوم الذي تشدد في تحريم استعمال اللغة العربية و ممارسة الشعائر الإسلامية.(19)

وقد حاول ابن داود ، في هذه القصيدة الموجهة لشمال إفريقيا، أن يشرح بإسهاب، المعاناة اليومية للمورييسكيين، وما كانوا يقاسونه من ألوان الظلم و الاضطهاد، بسبب تمسكهم بالإسلام. و يظهر تمسك المورييسكيين بعقيدة التوحيد من مطلع القصيدة التي استهلها ابن داود قائلا:(20)

بسم الله الرحمن الرحيم، و الحمد لله قبل و بعد كل كلام.

الملك لرب العالمين، و السيادة لأعلى الحاكمين.

و الملك لله الواحد الأحد، أنزل كتاب الحكمة

و الملك لبارئ الأنام، الذي يعفو عن الوسواس و يغفر للمذنب التائب.

الملك الأعلى الذي خلق الأرض و نباتها ، و جعلها مستقرا للبشر.

الملك الواحد الأحد، الذي يرزق بالخبز و الماء.

الملك الذي يحمي، الملك الأزلي رب العرش العظيم

الملك الذي يفعل ما يريد، و يصرف كل شيء بعنايته.

الملك الذي خلق السحب، و خلق آدم و أعطاه النجاة

(19) عنان. نهاية الأندلس. ص ص 362، 363.

(20) لقد حاولنا ترجمتها في فقرات نثرية، حرصنا- قدر الإمكان - على أن تكون في حجمها قريبة

من حجم بيت الشعر العربي القديم

الملك ذو الجلال الذي خلق البشر و الأطهار
واصطفى من بينهم الأنبياء،

وختم كتاب النبوات بمجيب إمام المرسلين. (21)

ولا يخفي ما تحتويه هذه المقدمة من تأكيد لفكرة التوحيد ، وقد أتبعها الشاعر بإبراز رفض الموريسكيين لما فرض عليهم من ممارسات النصرانية، التي اعتبروها نوعا من عبادة الأصنام، و صور ما يعانونه من ألوان العذاب النفسي، وهم يؤدون طقوسها في الكنائس. و بعد أن انتهى من تصوير العقوبات التي كانت تسلط على من ضبط متلبسا بجريمة المحافظة على الإسلام، و صور ما يعانيه الموريسكيون من آلام للمحافظة على دينهم، ختم قصيدته بالاستسلام للقضاء و القدر، الممزوج بالتفاؤل، فقال:

هذا ما كان من نصيب أمتنا. إنهم عرضوا علينا الكفر بدلا للشرف.

إن العدو ساخط علينا، إنه أصبح متوحشا كالنتين.

ونحن جميعا في مخالفه كاليمامة بين مخالف العقاب

ولما كانت هذه الأمور مقدرة من الله، فإننا استسلمنا لآلامنا.

و بحثنا عن التكهانات و النبوات،

لنعرف ما إذا كنا سنجد بعض العزاء في الكتب.

إن رجال العلم الذين قرأوا الأصول،

يقولون بأننا سنجد في الصوم علاجا.

و بأن المحنة ستشيب الولدان قبل الأوان،

ولكننا سنحظى بعد هذه الأزمة باليوم السعيد،

و سيلطف الله بنا. (22)

ونلاحظ مما ورد في هذا المقطع أن الموريسكيين لم يستسلموا لليأس ، و إنما ظلوا متشبهين بالأمل، و إن توسلوا إلى ذلك بما يشبه الخرافات من التكهانات و النبوات.

و يبدو أن الموريسكيين لم يكونوا يصوغونها في قوالب شتى، حيث كان بعضهم ينشدها « في قوالب شعراء الأغاني الإسبانية المعروفة بالرومنتس

(21) Circourt, Albert. Ibid. t2, P 491

(22) Circourt. Ibid. P 484

« Los Romances » التي كانت شائعة في ذلك العصر. (يعني القرن 16) . ومن ذلك ما فعله المعلم خوان ألفونسو الذي هاجر إلى تطوان لكي يمارس شعائر الإسلام في غير حرج، و هناك كتب قصيدة يحمل فيها على النصرانية حملة شعواء ...و إليك فقرة يحمل فيها على النصارى...»(23) حيث خاطب الإسباني قائلا :

أيها الغراب الإسباني الملعون
ياناشر الوباء ، أيها السجان البغيض
ها أنت واقف برؤوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم... (24)

ولا يخفى ما تحتزنه هذه القطعة- على قصرها- من مشاعر الكراهية التي غرسها الاضطهاد في نفوس المورييسكيين، حتى أصبحوا لا يرون في الإسباني إلا رمزا من رموز الشؤم (الغراب) ، أو قيذا من قيود الذل و العبودية، و أصبحت إسبانيا بالنسبة إليهم سجنا كبيرا، بل هي جحيم لا يطاق .

وقد كان المورييسكيون يحرصون على تخليد كل ما يربطهم بالإسلام و المسلمين ، ومنهم الحاج «بوي منثون» الذي وصف رحلته إلى الحج في كتابه الشعري المسمى «رباعيات حاج بوي منثون» « Las Coplas del Al Hichante de Puey Monçon »

و هي رحلة حقيقية قام بها صاحبها، في أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر (25) و نظمها في شعر قشتالي بسيط يتكون من مقطعات (Coplas) كل مقطعة منها ثمانية أبيات، وهو «شعر بسيط، يفيض حماسا وخيالا شاعريا. وقد وجد نصها الإسباني مكتوبا بحروف عربية عسيرة القراءة...»(26) أورد منها «بالنثيا» فقرتين في وصف أهوال يوم الحشر و هما :

(23) بالنثيا، أنخل. المرجع السابق. ص 519

(24) بالنثيا، أنخل. المرجع السابق. ص 520

(25) كاردياك، لوي. المرجع السابق. ص 33

(26) بالنثيا. م.س. ص 522

ثم إنه هناك يوجد الوادي
حيث، بحسب ما نقرأ في الكتب
سنكون هناك جميعا في ضيق عظيم
وسيري بعضنا بعضا متجاورين
وهناك سنبكي جميعا
ذنوبنا و أخطاءنا
و نحن الذين لم نقم بواجب الله
ماذا نفعل نحن الخاطئين



هناك رجالا و نساء
سنحشر معا جميعا
و عن الأعمال الصالحة التي عملناها
سنجزى جزاء طيبا
ولن ينال أحد عقابا
إلا بحساب عادل
وعلى قدر أعمالنا سيكون الجزاء. (27)

كما أورد لوي كاردياك فقرة أخرى من تلك الرباعيات، و يغلب على الظن أنها تأتي- في الترتيب- بعد الفقرتين السابقتين، فالشاعر بعد أن عرض أهوال يوم الحشر ، حيث تنكشف أمام أعين الناس خطاياهم و ذنوبهم، انتقل إلى الحديث عما يطهر النفس من خطاياها، و يخلصها من أهوال ذلك اليوم، فذكر فريضة الحج التي من شأنها أن تغسل كل ذنوب المؤمنين فقال :

لقد سافرت بفرح
بعيدا عن كل أقاربي
للتحول إلى أرض العرب
لإتمام فريضة الحج
و للقيام بهذا الحج

الذي هو فريضة هامة

من شأنها أن تغسل كل آلام

من يقوم بمثل هذه الرحلة. (28)

وعلى الرغم من اتفاق « بالنشيا » و « كاردياك » على نسبة هذه الرباعيات إلى الحاج بوي منثون الأرغوري، فقد نسبها الأستاذ غالميس دي فوينتس إلى الشاعر الموريسكي محمد ربضان (29) و هو أيضا من أهل أرغون. وإذا كنا لا نستطيع أن نرجح نسبتها لأحد الرجلين الذين لا نعرف عنهما إلا القليل، فإنه ليس من المستبعد أن يكون الشاعر محمد ربضان قد كتب تلك الرباعيات بطلب من ابن بلدته الحاج بوي مونثون، كما أنه ليس من المستبعد أن يكون الحاج بوي مونثون هو نفسه الشاعر محمد ربضان، الذي اضطره الاضطهاد - كمعظم الموريسكيين - أن يحمل اسمين، أحدهما إسباني رسمي، و الآخر عربي سري. وإذا كان الموريسكيون - كما أسلفنا - يجدون الكثير من الصعوبات في ممارسة شعائرهم الدينية، فإن شعيرة الحج كانت - دون شك - أكثر صعوبة من غيرها. ومع ذلك فقد تجشم الحاج « مونثون » كل الصعوبات لأدائها. و ليس من المستبعد أن يكون هو أو الشاعر محمد ربضان قد قصد من وراء وضعه لهذه الرحلة أن يحث الموريسكيين على التمسك بدينهم الذي لا خلاص لهم في سواه. كما لا يستبعد أن يكون قد عبر ، بوصفه لأهوال يوم الحشر، عن معاناة الموريسكيين، و عبر بأداء فريضة الحج و ما يعقبها من تطهير عن آمالهم في الخلاص وقد تزايد إحساس الموريسكيين بانتمائهم إلى العالم العربي الإسلامي، مع تزايد إجراءات القمع و الاضطهاد المسطرة عليهم، في السنوات التي سبقت عملية الطرد النهائي حيث كانت إسبانيا المسيحية تعد لتلك الحملة بتصوير العرب المسلمين في هيئة « اللقطاء » لأنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن الأمة « هاجر » وقد تأصلت فيهم، بسبب ذلك، العبودية مع كل ما يتبعها من صفات الانحطاط، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، و إنما نزعوا عن إسماعيل شرف التضحية، و نسبوها إلى إسحاق، كما نفوا ظهور النبوة في أبناء إسماعيل

(28) كاردياك . لوي المرجع السابق. ص 33

(29) GALMES DE FUENTES, A. LA LITTERATURE ALJAMIADO-MORISCA. REVUE

D'HISTOIRE MAGHRIBINE TUNIS N 27.28. P 241

«الهاجريين» بدعوى أن إبراهيم عليه السلام قد طرده مع أمه الأمة إلى جزيرة العرب، حتى لا يفسد أخلاق ولده الصالح إسحاق . ولذلك فإنه من واجب الملك الإسباني أن يحافظ على مملكته و على أبنائه، و أن يقتدي بإبراهيم عليه السلام، و يطرد هؤلاء الهاجريين، كما طرد إبراهيم أباهم إسماعيل.(30)

وقد تصدى الموريسكيون للرد على هذه الترهات، فكتب شاعرهم الكبير محمد ريبضان الآراغوني قصيدة مطولة في نسب العرب و نسب الرسول صلى الله عليه وسلم - سماها « تاريخ نسب محمد » (31) و أوضح في المقدمة النثرية التي مهد بها لهذه القصيدة، أنه كتبها للرد على المسيحيين الذين لم يتحرجوا عن إطلاق صفة « اللقيط » على إسماعيل وعلى سلالته، و نزعوا عنه مجد التضحية، و نفوا عنه صفة النبوة ، كما حدد تاريخ كتابتها بسنة 1603م (32) . و هذا يعني أنها كتبت قبل صدور قرار الطرد بستة أعوام.

و يظهر الإحساس بالانتماء إلى العالم العربي الإسلامي بوضوح تام، في تلك الأغنية التي انتشرت في إسبانيا قبيل عملية الطرد ، والتي كان ينشدها شاعر موريسكي من آراغون، يقول فيها :

قالوا إنه وجب علينا أن نرحل
نحن أيضا من هذه الأرض
نحو تلك الأرض الطيبة
أين الذهب و الفضة الرقيقة
يوجدان من جبل إلى جبل
إنهم يهددوننا بالطرد
لنذهب كلنا إلى هناك
أين توجد جماعات العرب
و أين توجد كل الخيرات هناك.(33)

(30) كاردياك. المرجع السابق. ص 57-59

(31) بالنثيا. المرجع السابق 520

(32) كاردياك. السابق 57. 58

(33) كاردياك. نفسه ص 83

ويبدو أن المورييسكيين كانوا مستعدين للرحيل عن إسبانيا، التي لم تعد تربطهم بها رابطة دينية أو قومية. فهذه الأغنية تعبر عن أملهم في الانتقال إلى أرض العرب، التي تبدو -هنا- كجزيرة من جزائر الأحلام، تتوفر فيها كل الخيرات، و تجتمع فيها كل أسباب السعادة. ولذلك فإن التهديد بالطرده لم يعد يخيف المورييسكيين، وإنما أصبح يمثل بالنسبة إليهم الباب الأخير للخلاص، و الطريق الوحيد للوصول إلى السعادة التي ستكتمل بملاقاة الأحبة من جماعات العرب.

و إذا كان قرار الطرد يمثل بالنسبة لإسبانيا قمة اليأس من إمكانية تحويل الشعب المورييسكي عن الإسلام إلى المسيحية، فإنه يمثل بالنسبة للمورييسكيين نهاية مرحلة الذل و القهر، و بداية عهد التحرر و الانعتاق، و لكنه يمثل بالنسبة إليهم أيضا بداية عهد جديد من التشرد و الضياع، فمن أين ينطلقون؟ و كيف يذهبون؟ و إلى أين يتجهون؟ وماذا سيجدون؟...و....و.

لقد طرحت كل هذه الأسئلة على المورييسكيين، دفعة واحدة، بعد أن جردوا من ممتلكاتهم، و خيرّوا بين الرحيل و الموت. وكان عليهم أن يجيبوا عنها في وقت لا يتجاوز ثلاثة أيام(34) - وإن كان قد مدد بعد ذلك- ولم تكن الإجابة عن تلك الأسئلة سهلة ولا ميسورة، و إنما كانت نوعا جديدا من المعاناة التي فرضت على المورييسكيين، و التي اعتبرها أحد شعرائهم، لعنة موروثه، يتعذب فيها الأبناء بخطايا آبائهم، فتوجه إلى ربه متضرعا لجلاله، راجيا منه أن يرفع غضبه عن هؤلاء المشردين البؤساء، فقال :

يا رب يا من ترى ما يعانیه عبادك
وهم أموات في قيد الحياة و أجسادهم تتلظى
يتعذبون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع
أو لأنك تنظر إلى خلقك في رضى
ارفع حربة غضبك الحامية (35)

(34) حومر، أسعد محنة العرب في الأندلس ط 1 بيروت المؤسسة العربية للدراسات و النشر،

1980 ص 269

(35) بالنشأ. المرجع السابق ص 522

ويبدو أن الشعر لم يكن مبالغاً، حينما قال: إن المعاناة قد حوّلت المطرودين إلى أموات لم تفارق الحياة أجسادهم التي تتلظى، فقد وصف الكاردينال دي ريشليو عملية طرد الموريسكيين و كان من معاصريها، بقوله: «إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة و وحشية» (36) و إذا كان الشعر الموريسكي قد حاول - كما رأينا- أن يحافظ على استقلال هوية الموريسكيين ، في هذه المرحلة الحرجة، و أن يحول بينهم و بين الاستسلام لليأس ، فهل استطاع النثر أن يصمد مثله؟

ثانياً: النثر:

إذا كان من الطبيعي أن يتعرض النثر للظروف التاريخية نفسها التي تعرض لها الشعر، و أن يعاني ما عاناه من ذل التقييد و التحريم، فإننا نستطيع أن نتوقع بأن يكون دوره في المحافظة على هوية الموريسكيين أقل من دور الشعر، و هذا بالاعتماد على أن الطبيعة العاطفية للشعر تمكنه من التعبير عن وجدان الأمة أكثر من النثر، الذي يغلب عليه الطابع العقلي. ولكن يبدو أن مكانة النثر لم تكن تقل-في أدب الموريسكيين- عن مكانة الشعر . وقد يفهم من كلام «بالنثيا» أنها أعلى من مكانة الشعر، إذا اعتبرنا الأدب القصصي أدبا نثرياً، في قوله: «و للموريسكيين أدب قصصي، وهو أعظم قيمة من شعرهم من الناحية الأدبية» (37) وقد أكد ذلك الأستاذ «ألبارو غالميس دي فونتس» حينما قال: «إن النشاط النثري للموريسكيين أكثر أهمية من عملهم الشعري» (38) و على الرغم من قلة معلوماتنا ، عما نشر أو ترجم من هذا النثر، فإن ما بين أيدينا منه - على قلته- يكفي لتكوين فكرة عن الدور الذي قام به النثر- إلى جانب الشعر- للمحافظة على مميزات الشخصية الموريسكية، و تأكيد ارتباطها بالعالم العربي الإسلامي. و يظهر ذلك في القصص التي كانت شائعة وقتئذ ، والتي كانت في معظمها ذات طابع ديني، مثل قصة يوسف و زليخة

(36) عنان نهاية الأندلس ص 417

(37) بالنثيا السابق ص 524

(38) GALMES DE FUENTES. IBID. P 240

التي كانت تروي كما وردت في القرآن الكريم ، وفي ذلك ربط للموريسكيين بمحتوى نصوصه ، وترسيخ لمعانيه في أنفسهم.

وقد يعتمد الموريسكيون إلى تعديل بعض القصص التي أشار إليها القرآن الكريم، مثلما فعلوا في «حديث ذي القرنين» وفي «حديث الملك الأسكندر» و هما قصتان ترويان حياة الأسكندر الأكبر، ولكن بعد أن أدخل عليها من التعديلات ما يؤهلها لأن تكون لصالح الإسلام و الموريسكيين، فالاسكندر «في هذه الأسطورة المستعجمية ، لا يقنع بأقل من ربط خيله ببرج الثور، وإلقاء سلاحه على الثريا، و ليس له من هدف من غزواته إلا نشر الإسلام دين الله، وتحريق الأصنام، و القضاء على عبّادها...»(39)

فالاسكندر ، هنا، لم يعد ذلك الملك المكدوني الوثني الذي أخضع الإغريق ودوخ الشرق القديم، وإنما تحول إلى إسكندر جديد، يفوق الإسكندر الأصلي قوة و طموحا. و ما دام الموريسكيون بحاجة إلى قوة مثل قوته الخارقة، فإنه لم يبق أمامهم إلا أن يلبسوه طموحاتهم و آمالهم، ليصبح مثلهم لا همّ له إلا نشر الإسلام و القضاء على أعدائه من عبدة الأوثان. و هكذا يتحول الإسكندر إلى بطل يعمل لتحقيق الحلم الموريسكي في الخيال، بعد أن عجز الموريسكيون عن تحقيقه في الواقع.

ومن القصص التي كانت شائعة آنذاك، قصة «حمام زرياب» وهي «قصة قرطبية من طراز ألف ليلة و ليلة، تمتاز ببساطة قالبها الأسطوري و ظرفه... بيد أن القيمة الحقيقية لهذه القصة إنما هي في طابعها نصف التاريخي، وفيما تقدمه إلينا من تفاصيل عن الحياة الخاصة لمسلمي الأندلس، في أزهى أيام الخلافة، لأنها تدور في أيام المنصور ابن أبي عامر...»(40)

ويغلب على الظن أن ربط حوادث القصة بأزهى عصور المسلمين في الأندلس ، وبعصر المنصور بن أبي عامر بالذات ، لم يأت صدفة، وإنما كان يهدف إلى تذكير الموريسكيين بأيام عزهم و مجدهم، وفي ذلك ما فيه من رفع لمعنوياتهم، و تشجيع لهم على التمسك بأصالتهم العربية الإسلامية، التي تبدو

(39) بالنشأ. المرجع السابق. ص 528

(40) بالنشأ. المرجع السابق. ص 527

-في هذه القصة- في صورة تجعلها جديرة بأن ينتمي إليها الموريسكيون، وبأن يعتزوا و يفتخروا بذلك.

ولم يكتف الموريسكيون بهذا النوع من القصص، لتأكيد انتمائهم للمجتمع العربي الإسلامي ، و رفض الاندماج و الذوبان في المجتمع الإسباني المسيحي، و إنما لجأوا -كما سبق أن أشار شاعرهم محمد بن داود- إلى نوع آخر للتعبير عن آمالهم في الخلاص ، وهو النبوات و التكهّنات التي شاعت في القرن السادس عشر. وقد علّلت الأستاذة «لوس لوباث» ظهورها بقولها: «وقد كانت وضعية الموريسكيين في حالة لا مزيد عليها من اليأس، حتى إنهم قد لجأوا إلى حيلة مدهشة...لاستمداد الشجاعة، إنها النبوات المزعومة بأنها مخطوطات قديمة، و التي تعلن-باستثناء بعضها-عن مستقبل مجيد و مظفر للطائفة الإسلامية»(41)

وقد كثرت النبوات في الأدب الألفمياوي(42) و تعددت مصادرها ، فلم يكتف الموريسكيون بنسبتها إلى العلماء و الأولياء المسلمين، وإنما توسعوا في ذلك حتى نسبوها إلى أحبار الكنيسة، مثل القديس «إيزيدور»(43) الإشبيلي ، كما أورد الأستاذ دي فوينتيس(44). وقد أورد لويس كاردياك العديد من تلك النبوات التي كانت تنتشر بين الموريسكيين، و منها :

« أن الأتراك بمعية جيوشهم سوف يتحولون إلى روما ، وسوف لا يتم إلا إنقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد- أما الآخرون فسوف يؤسرون أو يقتلون»(45)

ومنها أيضا : «ستقع فضائح، وسيتم تحالف بين عقيدة العرب و عقيدة المسيحيين، والناس جميعا سوف يرجعون إلى دين العرب.»(46) . ومن بين تلك النبوات أيضا « أن المسلمين سوف يرجعون مرة ثانية إلى إسبانيا، و أنهم سيدخلونها من أربع جهات...وأن المسلمين سوف يحتلون كامل إسبانيا...»(47)

(41) LOPEZ-BARALT, LUCE. IBID, P 66

(42) لوباث، بارالت لوس. النبوة في الأدب الألفمياوي- الموريسكي. ترجمة عبد الجليل التميمي.

المجلة التاريخية المغربية. ع 21، 22. ص 51

(43) هو القديس إيزيدور ISIDORE الإشبيلي، أسقف إشبيلية، عاش بين سنتي 560. 636م وهو الذي أعطى الكنيسة الإسبانية تنظيمها النهائي.

(44) Galmes de Fuentes. Ibid, P 241.

(45) كاردياك. المرجع السابق. صص 61=62.

(46)،(47) نفسه. ص 62.

وهذه النبوءات تكشف بوضوح عن طموحات الموريسكيين وعن الآمال التي كانوا يعلقونها على الدولة العثمانية، التي كانت أقوى دول الإسلام آنذاك. فقد كانوا يحلمون- عبر هذه النبوءات- بأن يكون الخلاص على أيدي العثمانيين الذين سيحتلون روما، التي كانت عاصمة المسيحية، ورمز قوتها آنذاك، كما كانوا يحلمون بأن يهب المسلمون لإعادة فتح الأندلس. و الحلم المشترك بين كل هذه النبوءات، هو أن الإسلام سينتصر حتما على الصليبية.

ولم يتوقف الموريسكيون في نبوءاتهم عند حدود الأحلام، وإنما حاولوا- في بعض الأحيان- أن يتجاوزوا ذلك إلى التنبؤ بأن ساعة الفصل قربت، وبأن موعد الخلاص قد آن. ومن ذلك تلك النبوءة التي جاء فيها: «أن الله سوف يخلق في هذا الزمان ابنا للجزيرة، وأن أباه سيكون رجلا أصم، ووالدته امرأة ذات عينين زرقاوين، وأن أحد إخوته سيولد مختونا» (48)

وقد أولى الدارسون هذه النبوءات عناية خاصة، وأسندوا إليها أدوارا و نتائج هامة، فهي - كما رأينا عند لوس لوباث- حيلة لاستمداد الشجاعة. أما عند لويس كاردياك،

فهي تعبير من الموريسكيين عن أملهم في مصير أفضل، وتعبير عن رفضهم للمجتمع المسيحي. وهي «تعبير عن أصل ديني، وهي تؤكد أيضا الإيمان بمصير سياسي محدد.

وهذان العنصران سوف يدمجان ليصلا إلى حد الاقتناع بقرب انتصار الهلال على الصليب.» (49)

و أما «مارمول كارباخال» فقد ألح «على الدور الهام الذي لعبته هذه النبوءات في تهيئة حرب البشرا» (50) التي وقعت سنة 1569م، بعد أن تعسفت السلطات الإسبانية في تنفيذ القانون الذي أعلن بغرناطة في أول جانفي سنة 1567م. ومعنى ذلك أنه يرتب على تلك النبوءات نتائج عملية مباشرة. وربما كان ذلك أقصى ما يمكن أن يطمح إلى تحقيقه الأدب، الذي يكفيه-عادة- أن يؤثر بطرق خفية بطيئة و غير مباشرة.

(48) كاردياك. المرجع السابق. ص 63

(49) نفسه. ص 64

(50) نفسه. ص 61

و هكذا حاول الأدب الألكمياىى ، أو أدب ما بعد الانهيار ، أن يتصدى للفناء بالمحافظة على المقومات الثقافية للشعب المورىسكى، و العمل على تأكيد هويته العربية الإسلامية، وإن توسل إلى ذلك بما يشبه الخرافات من التكهّنات و النبوات أحياناً. ولا يهمه أن تكون قد صدرت عن أولياء المسلمين أو قديسى المسيحيين، بل المهم عنده هو أن تحافظ تلك النبوات على بصيص الأمل فى النفوس ، و أن تحول دون استسلامها وقد نجح المورىسكيون-على الرغم من ملاحقات الكنيسة و فظاعات دواوين محاكم التفتيش- فى المحافظة على كيانهم المتميز، إلى أن صدر قرار الملك فيليب الثالث بطردهم و ترحيلهم عن إسبانيا سنة 1609م، بعد أن أعلنت الكنيسة عن فشلها فى انتزاعهم من دينهم القديم، و يؤسس من إمكانية تنصيرهم.

و إذا كان المورىسكيون قد طردوا و رحلوا بوحشية عن الأندلس، فإن منجزات عبقريتهم لا تزال مجسدة فى الكثير من مظاهر الحياة الإسبانية المعاصرة، و من بينها أدبهم الألكمياىى الذى لم يكتف بالمحافظة على هويتهم ، و إنما تجاوز ذلك إلى تخليد محنتهم تخليداً فنياً، فتجلت فيه- كواحدة من أكبر المحن التى عرفتھا الإنسانية- بكل ما فيها من ألوان الآلام و المعاناة ■

